دراسات

فى الأدب الايطالى الحديث

بقلم محمد أمين حسونه

— ٣ —

تألق نجم بيراندللو بعد النجاح العظيم الذى أحرزته روايته « المرحوم ماتياس باسكال » ، وكسفت شمسه أسماء الروائيين المعاصرين ، وبدأ النقدة يتحدثون عن فنه ويولونه اهتمامهم ، ثم اختير ليشغل كرسى أستاذ الأدب الايطالى بالجامعة وانتعشت حالته المالية بما أمكن أن يمحو من سجل حياته بعض المتاعب المادية ، وأن يسدل عليها ستار النسيان

ولكى نعطى صورة واضحة من حياة هذا الكاتب وارتباطها بفنه ، نقول إن التقلب على المتاعب المادية لم يكن كل شىء ، إذ هبت فى بيته عاصفة عكرت الجو مرة أخرى ، فأعصاب زوجته تحطمت ، ونوباتها العصبية تزداد بسبب غيرتها العمياء من تلميذات زوجها فى الجامعة ، وقد حاول بيراندللو كثيرا أن يزيل شكوكها وأوهامها ، فسمح لها بألا تعطيه من راتبه إلا يسمح له بابتياع سجائر أو أجر اترام ، غير أن هذه المهازلا فشلت ، وأخذ هذا الحيوان السام الذى يدعونه الغيرة يمتص شبابها ودمها بعد أن قدم اليها أسلحة جديدة من الشكو والأوهام ، ولم يكن لرأى زوجها أية قيمة عندها ولا أى تأثر فى نفسها . وعلى حين فجأة ذبل جمالها وانطفأ بريق عينيها وأصبحت تعتقد أنها مراقبة ومكروهة حتى من أولادها وأنهم جميعاً قد اتفقوا على أن يدسوا لها السم فى الدسم ولما اشتد بها الداء فكر إخوتها فى ادخالها إحدى مصحات الأمراض العقلية

وكانت الحرب العظمى قد شبت واختير ابنه البكر ليخوض غمارها ، وفى غضون ذلك وقع أسيرا ، أما ابنه الأصغر فكانت تجرى له عملية جراحية باحدى مستشفيات روما حتى إذا اجتاز دور النقاهة أرسل فورا الى خطوط النار

وكانت ابنة بيراندللو تتأذى من سوء معاملة الأم لها ولما فقدت الأمل فى ازالة الشكوك نحوها حاولت الانتحار غير أنها نجت ، ففكرت فى الهرب ودخلت أحد الأديرة لتقضى بقية حياتها بين جدرانه

وكان ستيفانو — والد بيراندللو — قد وصل من صقلية بعد أن صمد دهرا فى وجه المصائب ، فمن موت زوجه ، إلى افلاس تجارته وضياع ثروته ، الى غير ذلك من الآلام والمتاعب التى انتهت بفقد بصره

ولما كان بيراندللو مشغولا فى خلال هذه الفترة بمصير ولديه اللذين ذهبا الى الحرب ، ومضطراً الى أن يقضى يومه بين زوجة مأفونة ، ووالد عاجز ضرير ، وابنة وصمته بميسم العار ، كان لا بد من أن تخرج هذه الأشباح المعذبة التى تسكن ذهنه ، وأن يقدمها للناس فى ثوب درامى عنيف يجمع بين روح الواقع وبين الخيال

وهكذا غصت المقاعد فى مسرح سكالا بميلانو ليشهد الجمهور مسرحية بيراندللو الجديدة « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف Sei persone alla ricerca d'un autore التى ابتدع فيها فنا جديدا وعالما يموج بالصور والأشباح والشخصيات الجزأة

* * *

والواقع أن فترة المتاعب والآلام التى اجتازها هذا المؤلف

وسأجزيك ما تطيب به نف — سُك مما ينافى من جَنَاها
زُرْبى الدوق فى كساء وصفٍ — عارضاً خدمتى لكى يرضاها
فكأنى وقد تسربت كالما — ء جرى بين نفسه ولِحَاها (١)
واصطفانى لنفسه ، وشكانى — مطمئناً من همّه ما عَنَاها
وسرت فى أعماقها رُوْحُ ألحا — نى فهزّت أوتارَ موسيقاها
واطّبته فصاحتى كَرَسول — نحو اوليثيا يُذيب صَفَاها
كنْ لِسرّى قبرا ؛ وأترك حالى — لليالى تختارُ لى عُتباها

القبطان :

نَفّذيها ؛ وفى قرارة نفسى ال — سر لت ينتهى إلى أدناها
إن أحرّك به لسانى فلا التذ — ت عيونى بنُورها وكرَاها !

فيولا : لك شكرى ، هيّا بنا !

القبطان : ربّ سَدِّدْ — مِن خُطاهُ ! ولا أقول : خُطاها !

على احمد باكثير

---

(١) اللحاء قشر العود أو الشجر

ر في كافة أطوار حياته هي التي دفعته إلى أن يقول بلسان دى بطلاته : « ليست الأعمال إلا حقائب خاوية نملؤها هانما »

وهي التي أدت به إلى أن يكره العقل ، لا لأن العقل سجين ، لأنه صدفة فارغة لا تملؤها سوى الغريزة العمياء . فالحوادث لها مثل الأكياس لا يمكنها الوقوف وهي فارغة . كذلك إذا بد أن يظل الحادث حياً في الذاكرة ، منتصباً بين ظلال الوعي جب أن يكون له معنى واضح وأن تستقصى الأسباب والبواعث التي أدت اليه

حتى نظريات بيراندللو ليست سوى إنذار بهدم المنطق وإفلاس العقل وتفوق الخيال على الحقيقة . وعنده أن للأشياء لغة خاصة تتفاهم بها ووسائل تدفعها من وقت لآخر للقيام بأعمال باهرة على حين أن الشخصيات المادية لا تتجاوز في علاقاتها غير الحديث العادي

ومما يحملنا على الاعتقاد بأن نظريات بيراندللو البيسكولوجية لا تصل به إلى تفسير الناس ، أنه يلجأ شخصياً إلى هؤلاء الناس لتفسير أفكاره . ولو لا روح المرح والفكاهة التي تخلع على مؤلفاته ظلاً هادئاً ومسحة خاصة لتباعد بينها وبين مركز الألم لكان فنه الروائي هو الجحيم والانسانية المعذبة

لقد درس كل من إدجار ألن بو وستيفنسن نظرية ازدواج الشخصية وفوضاها في الانسان . أما بيراندللو فهو يقسم الشخصية في فنه الروائي إلى عشرة أو مائة أو ألف أو أكثر . فالفرد عنده مكون من شخصيات متناقضة كالحيوان الخرافي الذي تتحدث عنه أساطير الاغريق . وهو لا يعرف الأخلاق والعادات ولا يقدر الارادة أو الشهوة المغلبة لأن جميع مشاعره قابلة للتحول والتغير والتأثر

على أن أهم ما يرتكز عليه فنه ظواهر التحليلات النفسية وتعدد النازعات . فكل شيء في نظره مرجعه إلى التفسير ، بل قد يجوز أن يتخذ شخص ما صورة معينة في نظر أحد محللي نفس الشخصية . وقد قال بيراندللو بلسان إحدى بطلاته في روايته « شهوة الشرف » : « لاشك أن مدام أنيتا هي امرأة أخرى ، وليس هذا كل ما أقوله ، بل هي أخرى وأخرى وأخرى أيضاً ، بعدد الأشخاص الذين تعرفهم والذين يعرفونها »

وفي عام ١٩٢٤ ترك بيراندللو منصبه في الجامعة ليتفرغ للأدب والمسرح فوضع روايات : حصان في القمر ، ومهزلة الموت والفخ ، وأنت تضحك ، وزوجها ، وهنري الرابع . وسافر برفقة فرقة تمثيلية ألفها إلى عواصم أوربا ومدنها ، وبمرور الزمن تراكمت عليه الأعمال بسبب إخراج رواياته على مسارح باريس وبرلين ولندن ونيويورك وبونس إيرس وموسكو ، وكان لا بد من أن يسافر إلى جميع هذه العواصم ليشرف بنفسه على إخراج رواياته

يقول ادريانو تلجر في كتاب نشره عن فن بيراندللو المسرحي Studi sul teatro contemporaneo انه لم يتأثر في فنه بالمؤثرات اللاتينية بل يدل أدبه على أنه تأثر بأدب الشمال » . وليس ذلك بغريب من كتاب الجنوب واللاتين ، والكثيرون منهم أمثال دانتزيو وجوزيف جيا كوزا قد تأثروا الى مدى بعيد بأدب ابسن وطريقته في تحليل المشكلات الاجتماعية . والواقع أن ابسن سبق أن أقام فترة طويلة في ايطاليا وكان له الفضل الأكبر في تكوين مدرسة روائية مسرحية تمت الى فنه بأقوى الصلات

أضف الى ذلك أن بيراندللو برع في رسم مآسي الحياة وفواجع المجتمع براعة قلما أتيحت لكاتب يعاصره . وهو يتلاعب بألفاظه تلاعبا يخلع عليها وعلى أسلوبه مسحة تتفق ونظرياته الفلسفية في الانسان والروح . وليست دراماته سوى سرد ماضيه وتصوير نفسيته ، فهو من هذه الناحية لا يتحت الخيال ولا يتكلف التصوير ، ولكنه ممن يروحون عن أنفسهم بهذه الزفرات الموجعة

على أن الشيء الوحيد الذي يوجهه نقدة المسرح في أوربا الى فن بيراندللو يتلخص في نقطة واحدة ، هي أنه يجزىء شخصياته بما يؤدي الى هدم أساس الحياة والجنس البشري ، فبعض الشخصيات التي يضعها وسط الخيال تؤدي الى ضياع الفكرة التي ينشدها الفن المسرحي لاسيما وهو يعد الخيال حقيقة لا خطأ . ولو اعتبرنا الخيال واقعياً لوجب علينا بطريق الاستنتاج أن نعتبر الخيال والواقع متساويين من حيث الحقيقة ؛ ومع كل فبيراندللو هو أكثر الكتاب الروائيين والمسرحيين انتاجاً على الرغم من عدم تحوله عن نظريته التي يخضع لها في كل ما يكتب

(يتبع)

محمد أمين حسونة